كتاب
الدلائل والاعتبار
على الخلق والتدبير

تأليف الإمام ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

المتوفى سنة ٢٥٥

الطبعة الأولى

سنة ١٣٤٦ هجرية و١٩٢٨ ميلادية

طبعه وصححه محمد راغب الطباخ الحلبي على نفقته

في مطبعته العلمية بحلب

حقوق الطبع محفوظة له

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله وعلى جميع انبيائه

قال ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ان ناساً حين جهلوا الأسباب والمعاني وقصروا في الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها خرجوا الى الجحود والتكذيب حتى انكروا خلق الاشياء وزعموا ان كونها بأهمال لاصنعة فيه ولا تقدير فكانوا بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت اتقن بناء وفرشت احسن فرش واعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة والمآرب ووضع كل شيء من ذلك في موضعه على صواب وتقدير فجعلوا يسعون فيها بحجوبة ابصارهم فلا يبصرون هيئة الدار وما اعد فيها وربما عثر الواحد منهم بالشيء قد وضع موضعه واعد لشأنه وهو جاهل بالمعنى فيه فتذمر وتسخط وذم الدار وبانيها

فهذه حال هذا الصنف في انكارهم ما انكروا من الخلقة وانهم لما غميت اذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الاشياء صاروا يجولون في هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه في اتقان خلقته وصواب هيئته وربما وقف الواقف منهم على الشيء يجهل سببه والأرب فيه فيسرع الى ذمه وعيبه ووصفه بالخطأ والأحالة كالذى اقدمت عليه وجاهرت به المنانية الكفرة واشباههم من اهل الضلال .

فحق على من انعم الله عليه بمعرفته ووفقه لتأمل هذه الخلقة والوقوف على ما في خلقها من لطف التدبير وصواب التقدير بالدلائل القائمة فيها ان لا يقصر في اظهار ما بلغه علمه من ذلك. بل يجهد في نشره واذاعته وايراده على المسامع والاذهان لتقوى دواعي الأيمان وتخيب مكيدة الشيطان في تضليل الوهم محتسباً

للثواب في ذلك واثقا بعون الله تعالى وتأييده اياه .

فقد تكفلنا جميع ما وقفنا عليه من العبر والشواهد على خلق هذا العالم وتأليفه وصواب التدبير فيه وشرح الأسباب والمعاني في ذلك بمبلغ علمنا في كتابنا وتوخينا ايضاح القول فيه وتنويره والايجاز فيما شرحنا ليسهل فهمه ويقرب مأخذه على الناظر فيه ورجونا ان يكون في ذلك شفاء للناكر المرتاب وزيادة في يقين الموفق وبالله التوفيق .

فأول العبر بهيئة هذا العالم وتأليف اجزائه ونظمها على ما هي عليه . فأنك اذا تأملت العالم بفكرك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع عتاده . السماء مرفوعة كالسقف والارض ممدودة كالبساط والنجوم منضودة كالمصابيح والجواهر مخزونة في معادنها كالذخائر وكل شيء منها لشأنه وما يراد به . والانسان كالمالك للبيت المخول لما فيه وضروب النبات مهيأة لمآربه وصنوف الحيوانات مصرفة في مصالحه ففي هذا دلالة واضحة على ان العالم مخلوق بتدبير وتقدير ونظام . وان الخالق له واحد هو الذي الفه ونظم بعضه الى بعض وذلك مما قال فيه الأولون فأحسنوا القول ولكنا نتصرف الى فن آخر من دقايق الخلقة فنبين عما فيه من الصواب والحكمة مع النظام والملائمة وفي ذلك توبيخ القائلين بالأهمال والقائلين بأصلين متضادين (١) لان الأهمال لا يأتي بالصواب والتضاد لا يأتي بالنضاير

(فكر في لون هذه السماء) وما فيها من صواب التدبير فأن هذا اللون اشد الالوان موافقة للابصار وتقوية لها حتى ان من صفات الأطباء لمن اصابه شيء اضر ببصره ادمان النظر الى الخضرة ما قرب منها الى السواد . وقد وصف الحذاق منهم لمن كل بصره الأطلاع في اجانة خضراء مملوءة ماء .

(١) الأصلان المتضادان هما الذكر والانثى والحار والبارد او الحركة والسكون او الجنة والنار او العلم واللوح او طريقا الاعلى والاسفل اه من هامش الاصل

فانظر كيف جعل هذا الاديم اديم السماء بهذا اللون الاخضر الى السواد لتمسك الابصار المتقلبة عليه فلا ينكى فيها بطول مباشرتها له فصار هذا الذى ادركه الناس بعد التفكر والتجارب يوجد مفروغاً منه فى الخلقة .

(فكر فى طلوع الشمس وغروبها) لاقامة دولتى النهار والليل فلولا طلوعها لبطل امر العالم كله فكيف كان الناس يسعون في حوائجهم ومعايشهم ويتصرفون في امورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بلذة العيش مع فقدهم لذة النور وروحه . فالارب فى طلوعها ظاهر مستغن بظهوره عن الاطناب فيه. ولكن تأمل المنفعة فى غروبها فأنه لولا غروبها لم يكن للناس هدو ولا قرار مع عظم حاجتهم الى الهدو لراحة ابدانهم وجموم حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة لهضم الطعام وتنفيذ الغذاء الى الاعضاء كالذى تصف كتب الطب من ذلك . ثم كان الحرص سيحملهم الى مداومة العمل ومطاولته على ما تعظم نكايته في ابدانهم فأن كثيراً من الناس لولا جثوم هذا الليل بظلمته عليهم لما هدؤا ولا قروا حرصاً على الكسب والجمع ثم كانت الارض ستحمى بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت بتدبير الله تطلع وقتاً وتغيب وقتاً بمنزلة سراج يرفع لاهل البيت ملياً يقضوا حوائجهم ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليهدؤا ويقروا فصار الظلمة والنور على تضادهما متعاونين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه .

ثم فكر بعد هذا فى ارتفاع الشمس وانحطاطها لاقامة هذه الأزمنة الاربعة من السنة وما في ذلك من المصلحة ففي الشتاء تفور الحرارة في الشجر والنبات فتتولد فيه مواد الثمار ويستكثف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر وتشتد ابدان الحيوان وتقوى الافعال الطبيعية . وفى الربيع تتحرك الطبايع وتظهر المواد

المتولدة في الشتاء فيطلع النبات وينوّر الشجر ويهيج الحيوان للسفاد . وفي الصيف يحتدم الهواء فتنضج الثمار وتتحلل فضول الابدان ويجف وجه الارض فيتهيأ للبناء والاعمال . وفي الخريف يصفو الهواء فترفع الامراض وتصح الابدان ويمتد الليل فيمكن فيه بعض الاعمال الطويلة الى مصالح اخرى لو تقصّي ذكرها طال الكلام فيها .

(فكر في تنقل الشمس) في هذه البروج لاقامة دور السنة وما في ذلك من التدبير فهذا الدور هو الذى يضم الازمنة الاربعة من الشتاء والربيع والصيف والخريف ويستوفيها على التمام لانه فى هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار وتنتهى الى غاياتها من النضج والصلاح ثم يعود فيستأنف النشو والنمو . فما احسن ما قال الاولون الزمان مقدار الحركة الاّرى ان السنة مقدار مسير الشمس من الحمل الى الحمل فبالسنة واجزائها يكال الزمان وتوزن الاوقات من لدن خلق الله العالم الى كل وقت وعصر وبها يحسب الناس الاعمار والاوقات الموقتة للديون والاجارات والمعاملات وغير ذلك من امورهم وبمسير الشمس تكمل السنة ويقوم حساب الزمان على الصحة .

[فاما مسير القمر]ففيه دلالة واضحة جليلة تستعمله العامة فى معرفة الشهور ولا يقوم عليه حساب السنة لان دوره لا يستوي فى الازمنة الاربعة ونشو الثمار وتصرمها ولذلك صارت شهور القمر وسنوه تتخلف عن شهور الشمس وسنيها وصار الشهر من شهور القمر يتنقل فيكون مرة فى الشتاء ومرة فى الصيف .

(تأمل) شروق الشمس على العالم كيف دبر ان يكون فانها لو كانت تبزغ فى موضع من السماء فتقف فيه لا تعدوه لما وصل شعاعها الى كثير من الجبال لأن الجبال والجدران كانت تحجبها عنها فصارت بتدبير الله تطلع اول النهار من

المشرق فتشرق على ما قابلها من المغرب ثم لا تزال تدور وتمشي جهة بعد جهة حتى تنتهي الى المغرب فتشرق على ما استترعنها فى اول النهار فلا يبقي موضع من المواضع الا اخذ بقسط من الارب فيها .

(فكر في مقادير الليل والنهار) كيف وقعت على ما فيه صلاح هذا الخلق فصار منتهى كل واحد منهما اذا امتد خمس عشرة ساعة لا يجاوز ذلك ارأيت لو كان النهار مقدار مائة ساعة اومائتين الم يكن فى ذلك بوار ما على الارض من حيوان او نبات. اما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر طول هذه المدة من العمل ولا البهائم كانت تمسك عن الرعى او دام لها ضوء النهار ولا الانسان كان يفتر عن العمل والحركة فكان ذلك ينهكها اجمع ويؤديها الى التلف .

واما النبات فكان يدوم عليه حر النهار ووهج الشمس حتى يحترق ويجف وكذلك الليل لو امتد مقدار هذه المدة كان يعوق اصناف الحيوان عن الحركة والتصرف وطلب المعاش حتي تموت جوعاً وتخمد الحرارة الطبيعية من النبات حتى يعفن ويفسد كالذي نراه يحدث على النبات اذا كان فى موضع لا تقع عليه الشمس (فكر فى انارة القمر) والكواكب فى ظلمة الليل والأرب فى ذلك فأنه مع الحاجة الى الظلمة ولهدو الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح فى ان يكون في الليل ظلمة داجية لاضياء فيها فلا يمكن فيه شئ من العمل لأنه ربما احتاج الناس الى العمل لضيق الوقت عليهم في بعض الأعمال اولشدة الحر وافراطه بالنهار فيعمل في ضوء القمر اعمالٌ شتى كحرث الأرض وضرب اللبن وقطع الحطب وما اشبه ذلك فجعل ضوء القمر بالليل معونة للناس على هذه الأعمال اذا احتاجوا الى ذلك وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض ونقص مع ذلك عن نور الشمس وضيائها لكيلا ينبسط الناس فى العمل بالليل فيه انبساطهم بالنهار ويتمنعوا من الهدو و القرار فينهكهم ذلك

وجعل في الكواكب جزء يسيراً من الضوء ليسد مسداً اذا لم يكن قمر ويمكن فيه بعض الحركة اذا حدثت ضرورة كما قد يحدث على المرء من الحوادث التي يحتاج معها الى النجاة والسعي في جوف الليل المظلم فأن لم يكن شيء من الضوء يهتدي به لم يستطع المرء ان يزول عن مكانه. فتأمل لطف الحكمة في هذا التقدير حيث جعلت الظلمة دولة ومدة للحاجة اليها وجعل خلالها شيء من النور للمآرب التي وصفنا ثم في النجوم مآرب اخري فأن فيها علامات ودلالات على اوقات كثيرة من من الأعمال كالزراعة والغراسة والسفر في البر والبحر واشياء مما تحدث في الأزمنة من الرياح والحر والبرد وبهذا يهتدي السارى في ظلمة الليل ويقطع القفار الموحشة واللجج الهائلة مع مافي ترددها في هذه السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة وفي تصريف القمر خاصة فى مهلّه ومحاقه وزيادته ونقصانه وكسوفه من التنبيه على قدرة خالقها المصرف لها هذا التصريف لصلاح العالم .

ومما يدل عليه القياس ان هذه المصابيح تسير اسرع السير واحثه وذلك انها تدور في كل يوم وليلة دوراً تاماً حتى ترجع الى مراجعها فتطلع منها فلولا سرعة سيرها لما قطعت هذه المسافة البعيدة في مقدار اربعة وعشرين ساعة . افرأيت لو كانت الشمس والنجوم بالقرب منا حتى يتبين لنا سرعة سيرها بكنه ما هي عليه الم تكن تستخطف الابصار بوهجها وشعاعها كالذى يحدث احيانا من البروق اذا توالت واضطربت في الجو وكذلك ايضاً لو ان ناساً كانوا في قبة مكللة بمصابيح تدور حولهم دوراناً حثيثاً لحارت ابصارهم حتى يخروا بوجوههم فانظر كيف قدر ان يكون مسيرها في البعد البعيد لكيلا تضر الابصار وينكأ فيها النور وبأسرع السرعة لكيلا تتخلف عن مقدار الحاجة من سيرها .

(فكر في هذه النجوم) التي تظهر فى بعض السنة وتحتجب في بعضها كمثل

الثريا والجوزاء والشعري فأنها لو كانت بأسرها تظهر في وقت واحد وتحتجب وقتاً واحداً لم يكن لكل واحد منها على حياله دلالات يعرفها الناس ويهتدون بها لبعض امورهم كمعرفتهم الآن بما يكون في طلوع الثريا والجوزاء اذا طلعت واحتجابها اذا احتجبت . فصار ظهور كل واحد منهما واحتجابه في وقت غير وقت الآخر لينتفع الناس بما يدل عليه كل واحد منهما على حدته. فكما جعلت الثريا واشباهها تظهر حيناً وتحتجب حيناً لضروب من المصلحة كذلك جعلت بنات نعش ظاهرة ولا تغيب لضرب آخر من المصلحة فأنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس للطرق المجهولة في البر والبحر معاً وذلك انها لا تغيب ولا توارى اصلا فهم ينظرون اليها متى ارادوا ويهتدون بها الى حيث شاؤا وصار الامران جميعا على اختلافهما من جهتين نحو الأرب والمصلحة .

(فكر في النجوم) واختلاف سيرها ففرقة منها لا تديم مراكزها من الفلك ولا تسير الا سيراً ضعيفا مجتمعة . وفرقة مطلقة تتنقل في البروج وتفترق في مسيرها فكل واحد منها يسير بسيرين مختلفين احدهما عام مع الفلك نحو المغرب وآخر خاص لنفسه مع المشرق . وقد شبه الأوائل هذه المطلقة بنملة تدب على رحى والرحا تدور ذات اليمين والنملة تدور ذات الشمال فأن النملة في تلك الحال تتحرك حركتين مختلفتين احداهما بنفسها متوجهة امامها والاخرى مستكرهة مع الرحى تجتذبها الى خلفها فليسأل الزاعمون ان النجوم صارت على ما هي عليه بالاهمال ومن غير عمد ما منعها ان تكون كلها راتبةً اوتكون كلها متنقلة فأن الأهمال معنى واحد فكيف صار بحركتين مختلفتين على تقدير ووزن فهذا بيان ان مسير الفريقين على ما يسيران عليه بعمد وتدبير وليس بأهمال كما تزعم المعطلة . فأن قلت ولما صار بعض النجوم راتباً وبعضها متنقلا قلنا انها لو كانت كلها

راتبة لبطلت الدلالات التي تكون من تنقل المتنقلة منها ومصيرها في كل واحد من البروج زماناً محدوداً كما قد يستدل على اشياء مما يحدث في العالم بتنقل الشمس والقمر والنجوم في منازلها ولو كانت كلها متنقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يقاس عليه لأنه انما يقاس مسير المتنقلة بتنقلها في البروج الراتبة كما يقاس سير السائر على الأرض بالمنازل التي يجتاز عليها .

وجملة القول انها لو كانت بحالة واحدة لاختل نظامها وبطلت المآرب فيها ولساغ لقائل ان يقول ان كينونتها على حال واحدة يوجب عليها الاهمال من الجهة التي وصفنا . ففي اختلاف مسيرها وتصرفها وما في ذلك من الارب والمصلحة ابين دليل على العمد والتدبير فيها .

(فكر) لم صار هذا الفلك بشمسه وقمره ونجومه وبروجه يدور على العالم هذا الدوران الدائم بهذا التقدير والوزن الا لما في اختلاف النهار والليل وهذه الازمان الاربعة من السنة على الارض وما عليها من اصناف الحيوان والنبات من ضروب المصلحة كالذي بيّنا ولخصنا آنفا وهل يخفى على ذي لب ان هذا تقدير مقدر لصواب وحكمة من مقدر حكيم .

فان قلت ان هذا شيء اتفق ان يكون هكذا فما يمنعك ان تقول هذا في دولاب تراه يدور لسقي حديقة فيها شجر ونبات فترى كل شيء من آلته مقدراً بعضها تلقاء بعض على ما فيه صلاح تلك الحديقة وما فيها وبماذا كنت تثبت هذا القول لو قلته وما ترى الناس كانوا قائلين لك لو سمعوه منك سوى تسفيه رأيك وتضليل عقلك . افتنكر ان تقول هذا في دولاب خسيس مصنوع بحيلة تصيره لمصلحة قطعة من الارض انه كان بلا صانع ومقدر وتقدم علي ان تقول هذا الدولاب الاعظم المخلوق بحكمة تقصر عنها اذهان البشر لصلاح جميع الارض وما عليها انه شيء اتفق ان يكون بلا

صنعة ولا تقدير لو اعتل هذا الفلك كما تعتل هذه الآلات التي تتخذ لرفع الماء وغيرها ما كان عند الناس من الحيلة في صلاحه ولو تخلفت عنهم مقدار عام او بعض عام كيف تكون حالهم بل كيف كان يكون لهم مع ذلك بقاء افلا ترى كيف كفى الناس هذه الامور الجليلة التى لم يكن لها فيها عندهم حيلة فصارت تجرى على مجاريها لا تعتل ولا تختل منافعها ومصالحها ولا تتخلف عن موافيتها لصلاح العالم وما فيه .

(فكر) فى هذا الحر والبرد وكيف يتعاوران العالم ويتصرفان هذ التصرف فى الزيادة والنقصان والاعتدال لأقامة رسوم هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما فيها من المصالح ثم هما بعد دباغ الأبدان عليهما بقاؤها وفيهما صلاحها فأنه لولا الحر والبرد وتداولهما الأبدان لفسدت الأبدان وانتكثت قواها وانتقضت في اسرع مدة .

(ثم فكر) في دخول احدهما على الآخر بهذا التدريج والترسل فأنك تجد احدهما ينتقص شيئاً بعد شئ والآخر يزيد مثل ذلك حتى ينتهى كل واحد منهما منتهاه في الزيادة والنقصان ولو كان دخول احدهما في الآخر مفاجأة لأضر ذلك بالأبدان واسقمها كما ان امرأ لو خرج من حمام حار الى موضع مفرط البرد لضره ذلك واسقم بدنه فلم كان هذا الترسل في دخول الحر والبرد الا للسلامة من ضرر المفاجاة ولم جري ذلك الأمر على ما فيه السلامة من ضرر المفاجاة لولا تدبير المدبر في ذلك

فأن زعمت ان هذا الترسل في دخول الحر والبرد انما يكون لأبطاء مسير الشمس في ارتفاعها وانحطاطها سألت ايضاً عن العلة في ابطاء مسير الشمس في الارتفاع والانحطاط فأن اعتللت في الابطاء ببعدها بين المشرقين وسئلت عن العلة في ذلك فلا تزال هذة المسئلة ترتقى معك الى حيث رقيت من هذا القول حتى تستقر

على العمد والتدبير. لولا الحر لما كانت هذه الثمار الجاسية المرة تنضج فتلين وتعذب حتى يتفكه بها رطبةً ويابسة ولولا البرد لما كان الزرع يفرخ ويربع الربع الكثير الذي يتسع للقوت وما يردّ في الارض افلا ترى ما في الحر والبرد من عظيم الغناء والمنفعة وكلاهما مع عظم غنائه والمنفعة فيه يؤلم الابدان ويمضها فأعتبر بهذا في كثير من الامور التي تمض الناس وتخالف اهواءهم وهي من التدبير الحكيم في مصلحتهم.

فتأمل حكمة الباري في التدبير في خلق النار على ما هي عليه فأنه لم يكن يصلح ان تكون مبثوثة كالنسيم والماء اذاً كانت تحرق العالم بما فيه ولم يكن بد من ظهورها في الأحايين لعنايتها في كثير من المصالح فجعلت كالمخزونة في الاجسام الحافظة لها تستبعث عند الحاجة اليها فتمسك بالمادة والحطب ما احتيج الى بقائها ثم تخبوا فلا هي تمسك ابداً بالمادة والحطب فتعظم المؤنة في ذلك ولا هي تظهر مبثوثة في العالم فتحرق كلما هي عليه بل هي على هيئة وتقدير اجتمع فيه الاستمتاع بمنافعها والسلامة من ضررها.

ثم في النار خلة اخرى وهي انها مما خص به الانسان دون جميع الحيوان لما فيه من المصلحة فأنه او فقد النار لعظم ما يدخل عليه من الخلل في معاشه.

فأما البهائم فلا تستعمل النار ولا تستمتع بها ولما قدر ان يكون هكذا خلقت للانسان كف واصابع مهيأة لقدح النار واستعمالها ولم تعط البهائم مثل ذلك لكنها اعينت بالصبر على الجفا والخلل في المعاش لكيلا ينالها من فقد النار ما ينال الانسان.

وانبهك من مصالح النار على خلة صغير قدرها عظيم موقعها وهي هذا المصباح الذي يتخذه الناس فيقضون به حوائجهم ما شاؤا من ليلهم ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف اعمارهم بمنزلة من في القبور. فمن كان يستطيع ان يكتب او يحفظ او ينسخ في ظلمة الليل وكيف تكون حال من عرض له وجع في وقت

من اوقات الليل فاحتاج الى ان يعالج ضمادا او سفوفا او شيئاً مما يستشفي به .
فأما منافع النار فى نضج الأطعمة ودفء الابدان وتجفيف اشياء وتحليل اخرى واشباه هذا فانه اكثر من ان يحصى واظهر من ان يخفي حسبك بهذا النسيم المسمي هواء عبرة وما فيه من المصالح فأنه حياة هذه الابدان والممسك لها من داخل بما تستنشي منه ومن خارج بما يباشر من روحه وفيه تطرد هذه الاصوات فيؤديها من البعد البعيد وهو الحامل لهذه الأرابيح ينقلها من موضع الى موضع الا ترى كيف تأتيك الرائحة من حيث تهب الريح وكذلك الصوت وهو القابل لهذا الحر والبرد اللذين يعتقبان على العالم لصلاحه ومنه هذه الريح الهابة فالريح تروّح عن الاجسام وتزجي السحاب من موضع الى موضع ليعم نفعه وتركه حتى يستكثف فيمطر ويفيضه حتى يستجف فتنفش وتلقح الشجر وتسيّر السفن وتذرى الاطعمة وتبرد الماء وتشب النار وتجفف الاشياء الندية . وفي الجملة انها تحيي كل ما على الارض فانه لولا الريح لذوى النبات ومات الحيوان ووخمت الأشياء وفسدت . الست تري ركود الريح اذا ركدت كيف يحدث الكرب الذي يكاد يأتي على النفوس وتمرض الاصحاء وتنهك المرضى وتفسد الثمار وتعفن البقول ويعقب الوبا في الابدان والآفة في الغلات . ففى هذا بيان ان هبوب الريح اكثر الأيام من التدبير الحكيم في صلاح هذا الخلق .
وانبئك عن الهواء بخصلة اخري فأن الصوت فيما ذكرت الحكماء اثر يؤثره اصطكاك الأجسام فى الهواء والهواء يؤديه الى المسامع والناس يتكلمون في حوائجهم ومعاملاتهم طول نهارهم وبعض ليلهم فلو كان اثر هذا الكلام يبقى في الهواء كما يبقى الكتاب في القراطيس لأمتلأ العالم منه حتي يكربنا ويفدحنا ونحتاج فى تبديله والاستبدال به الى اكثر مما نحتاج اليه فى استبدال القراطيس

لأن الذى يلغى من الكلام ولا يكتب اضعاف مايكتب فجعل الخلاق العليم هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل كلامنا ريثما يبلغ حاجتنا ثم يمحي فيعود جديداً نقيا بلا كلفة منا ولا عزم ويحمل ما حملناه ابداً بلا انقطاع .

(فكر فى خلق هذه الارض) على ماهى عليه حين خلقت راتبة راكدة لتكون وطاء ومستقراً للأشياء ويتمكن الناس والأنعام من السعى عليها فى مآربهم والجلوس لراحتهم والنوم لهدوهم والأتقان لاعمالهم فأنها لو كانت رجراجة منكفئة لم يكونوا يستطيعون ان يتقنوا البناء والنجارة والحدادة والصياغة والحياكة بل كانوا لا يتهنون بالعيش والارض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيب الناس فى الزلازل على قلة مكثها حتى يصيروا الى ترك منازلهم والهرب عنها.

فأن قلت ولم صارت الارض تزلزل (قلنا) ان الزلزلة وما اشبهها ترهيب يرهب بها الناس ليرغبوا وينزعوا عن المعاصى وكذلك ماينزل بهم من البلايا فى ابدانهم واموالهم من نقمة ومصيبة وقحط تجري فى التدبير الى مافيه صلاحهم واستقامتهم ويدخر لهم ان صلحوا من الثواب والعوض فى الآخرة ما لا يعدله شيء من امور الدنيا وربما عجل ذلك فى الدنيا اذا كان فيه صلاح لعامة اوخاصة ثم ان الارض فى طباعها باردة يابسة وكذلك الحجارة وانما الفرق بينها وبين الحجارة فضل يبس فى الحجارة افرأيت لوان اليبس ان افرط على الارض قليلاً حتى تكون حجراً صلداً أكانت تكون تنبت هذا النبات الذي فيه حياة الحيوان او كيف كان يمكن فيها حرث او خضرة او بناء فلا تري كيف نقصت من يبس الحجارة وجعلت على ماهى عليه من اللين والرخاوة لتتهيأ الاعمال.

ومن التدبير الحكيم في خلقة الارض ان مهب الشمال ارفع من مهب الجنوب وما كان ذلك الا لتنحدر المياه علي وجه الارض فتسقيها وتروبها ثم تغيض

الى البحر آخر ذلك فكما يرفع احد جانبي السطح ويخفض الآخر لينحدر الماء عنه ولا يقوم عليه فيفسد كذلك جعل مهب الشمال ارفع من مهب الجنوب ولولا ذلك لبقي الماء متحيراً على وجه الارض فمنع الناس من اعمالها وقطع الطرق والمسالك.

[انظر الى هذه الجبال] المركومة من الطين والحجارة التي قد يحسبها الغافلون فضلا لا حاجة اليه والمنافع فيها كثيرة فمن ذلك ان الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها لمن يحتاج في الفيظ اليه ويذوب ما ذاب منه فتجري منه العيون الغزيرة التي تجتمع منها الانهار العظام وينبت منها ضروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت مثلها في السهل . ويكون فيها كهوف ومعاقل للوحش من السباع والعادية وتتخذ فيها الحصون والقلاع المنيعة لتتحرز من العدو وينحت منها الحجارة للبناء والأرحاء ويوجد فيها معادن لضروب من الجواهر وعسى ان يكون فيها خلال اخرى لا يعرفها الا المقدر لها في سابق علمه .

(فكر في هذه المعادن) وما يخرج منهـا من الجواهر المختلفة الالوان كمثل الجص والكلس والجير والجبصين والزرنيخ والزاج والمزنك والتوتيا والفضة والذهب والزبرجد واليافوت والزئبق والنحاس والرصاص والخرز والحجارة وكذلك ما يخرج منها من القار والزفت والموميا والكبريت والنفط وغير ذلك مما يستعمله الناس في مآربهم ومصالحهم وكيف اختلفت طبائعها والوانها واحوالها فمنها ما هو سم قاتل ومنها ما ينفع من السم ويقطعه ومنها ما يقويه ويزيل في فعله فهل يخفى على ذي عقل ان هذه كلها ذخائر ذخرت للانسان في هذه الأرض ليستخرجها فيستعملها عند حاجته اليها.

(ثم فكر في عزة هذا الذهب) والفضة وقصور حيلة الناس عما حاولوا من صنعتها على حرصهم واجتهادهم في ذلك فانهم لو ظفروا بما حاولوا من هذا

العلم لكان لا محالة يستظهر ويستفيض فى العالم حتى يكثر الذهب والفضة ويسقط عند الناس فلا تكون لهما قيمة ويبطل الانتفاع بهما فى الشراء والبيع والمعاملات والأتاوة تجبى للسلطان والذخر تذخر للاعقاب وقد اعطى الناس مع هذا صنعة الشبة من النحاس والزجاج من الرمل وما اشبه ذلك مما لا مضرة فيه. فانظر كيف اعطوا ارادتهم فيما لا ضرورة عليهم فيه ومنعوا ذلك فيما كان ضاراً لهم لو نالوه. اخبرنا اناس ممن يزاول المعادن انهم اوغلوا في بعضها فانتهوا الى موضع رأوا فيه امثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك واد عظيم يجري متصلاً بماء غزير لا يدرك غوره ولا حيلة في عبوره ثم عادوا يطلبونه فلم يقفوا عليه فانصرفوا آسفين.

(فكر) فى هذا من تدبير الخالق فأنه اراد جل ثناؤه ان يرى العباد قدرته وسعة خزائنه ليعلموا انه لو شاء ان يمنحهم كالجبال من الفضة لفعل لكن لا صلاح لهم فى ذلك لأنه كان يكون كما ذكرنا من سقوط هذا الجوهر عند الناس وقلة انتفاعهم به واعتبر ذلك بانه قد يظهر الشيء الطريف يحدثه الناس من الأوانى والأمتعة فما دام عزيزاً قليلا فهو نفيس جليل آخذ للثمن فاذا فشا وكثر في ايدي الناس سقط عندهم وخست قيمته وفى هذا مصداق قول القائل ان نفاسة الاشياء من عزتها.

(فكر) في كثرة ما خلق الله من هذه الجواهر الاربعة ليتسع الناس بما يحتاج اليه من ذلك فمن ذلك سعة هذه الارض وامتدادها فلولا ذلك كيف كانت تتسع لمساكن الانس ومزارعهم ومراعيهم ومنابت اعشابهم واحطابهم والمقافير العظيم موقعها منهم والمعادن الجسيم غناؤها عنهم ولعلك تنكر هذه الفلوات الخالية والقفار الموحشة فتقول ما المنفعة فيها أفنسيت انها مستكن هذه الوحوش ومحالها ومراعاها ثم فيها متنفس ومضطرب الناس اذا احتاجوا الى الاستبدال باوطانهم فكم من بيداء سملق (١) قد حالت قصوراً وجناناً بانتقال الانسان

(١) السملق كجعفر القاع الصفصف اه قاموس

اليها وحلولهم فيها ولولا سعة الأرض وفسحتها لكان الناس كمن كان في حصار ضيق لا يجد مندوحة من وطئه اذا حزبه امر يضطره الى الانتقال عنه وكذلك الماء لولا تدفقه وجريانه في العيون والاودية والانهار لضاق عما يحتاج الناس لشربهم وشرب انعامهم ومواشيهم وسقي زروعهم واشجارهم واصناف غلاتهم وشرب مايرده من الوحش والطير والسباع ويتقلب فيه من الحيتان وذوات الماء. وهكذا الهواء ايضاً لولا كثرته وسعته لاختنق هذا الانام من الدخان والبخار الذي يتبخر فيه ولعجز عما يحول الى الضباب والسحاب اولاً فأولاً .

والنار ايضاً كذلك فأنها وان لم تكن مبثوثة في كل مكان فأنها عتيدة متى احتيج اليها واسعة لكل ما يحتاج اليها منها انها مخزونة في الاجسام للسبب الذى ذكرناآنفا.

واذكرك من منافع الماء خلالا انت بها عارف وعن عظيم موقعها غافل فأن سوى الامر الجليل المعروف فى عنائه في احياء جميع ما على وجه الارض من حيوان او نبات به تمزج الاشربة فتلين وتعتدل وتطيب لشاربيها وبه ترحض الأبدان والأمتعة من الدرن الذى يغشاها وبه يبل التراب ويصلح للاعتمال به. وبه يكف عادية النار اذا اضطرمت واشفى الناس منها على الهلاك والمكروه وبه يسيغ الغاص ماغص به فينجو من الموت وبه يستحم التعب الكال فيجد الراحة فى اوصاله الى اشباه هذا من المآرب التى يعرف عظم موقعها في وقت الحاجة اليها. فان شككت في منفعة هذا الماء الكثير المترا كم في البحار فقلت ماالارب فيه فاعلم انه مسكن ومضطرب لما لايحصى من اصناف السمك ودواب البحار ومعدن اللؤلؤ والمرجان والياقوت والعنبر واصناف شتى تستخرج من البحر ومن سواحله منابت العود واليانجوج وضروب من الطيب والعقاقير ثم بعده هو مركب للناس ومحمل لهذه التجارات التى تحمل من البلدان البعيدة كما يجلب من الصين

الى العراق ومن العراق الى الصين وان هذه التجارات لو لم يكن لها محمل الا على الظهر لبارت وبقيت في بلدانها وايدى اهلها لأن اجرة محملها كان يجاوز اثمانها فلا يتعرض احد لحملها وكان يجتمع في ذلك امران احدهما فقد اشياء كثيرة تعظم الحاجة اليها والآخر انقطاع معاش من يجلبها ويتعيش بفضلها .

(فكر في نزول المطر) على الأرض والتدبير فيه فأنه جعل ينحدر عليها من اعلا ليغشى ما غلظ منها وارتفع فيرويه ولو كان انما يأتيها من بعض نواحيها لما علا المواضع المشرفة منها واقل ما يزرع من الأرض الا ترى الذى يزرع سيحا اقل من ذلك والأمطار هي التي تطبق الأرض وبها تزرع هذه البرارى الواسعة وسفوح الجبال وذراها فتغل الغلة الكثيرة وبها يسقط على الناس في كثير من البلاد مؤنة بسياق الماء من موضع الى موضع وما يجري بينهم في ذلك من التشاح والتظالم حتى يستأثر بالماء ذو العزة والقوة ويحرمه الضعفاء .

ثم انه حين قدر ان ينحدر على الأرض انحداراً جعل ذلك قطراً شبيها بالرش ليغور في قعر الأرض فيرويها ولو كان ينسكب انسكاباً كان يظل على وجه الأرض فلا يغور فيها ثم كان يحطم الزروع القائمة اذا اندفق عليها فصار ينزل نزولاً رفيقا فينبت الحب المزروع ويحيي الزرع القائم ثم في نزوله ايضاً مصالح اخرى فأنه يلين الأبدان ويجلو كدر الهواء فيرتفع الوباء الحادث من ذلك ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الداء المسمى باليرقان الى اشباه هذا من المنافع فيه .

(فان قلت) او ليس قد يكون منه في بعض السنين الضرر العظيم لشدة وقع منه او برد يكون فيه تحطم الغلات او بحثورة يحدثها الهواء فيولد كثيرا من الأمراض فى الأبدان والآفات في الغلات (قلنا) بلى قد يكون ذلك فى الفرط لما فيه صلاح الأنسان بكفه عن ركوب المعاصى والتمادى فيها فتكون المنفعة له فيما

يصلح له من دينه ارجح مما عسى ان يرزأ في ماله .

(فكر في المطر والصحو) كيف يعتقبان على العالم لما فيه صلاح ولو دام واحد منهما عليه كان في ذلك فساده الا ترى ان الأمطار اذا توالت عفنت البقول والخضر واسترخت ابدان الحيوان وخثر الهواء(١) فأحدث ضروباً من الأمراض وفسدت الطرق والمسالك . وان الصحو اذا دام جفت الأبدان وتصوح النبات ويبطئ نضج الثمار وغيض ماء العيون والأودية فأضر ذلك بالناس وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضروباً من الأمراض فأذا تعاقبا على هذا العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر فصلحت الأمور والأشياء واستقامت . (فأن قلت) ولم يكون في شيء منهما مضرة البتة قلنا ليمض ذلك الأنسان ويؤلمه بعض الألم فيرعوي وينزع عن المعاصي فكما ان الأنسان اذا سقم بدنه احتاج الى الأدوية الكريهة المرة المنيمة لتقوم طباعه وتصلح ما فسد منه كذلك هو اذا طغى واشر احتاج الى ما يمضه ويؤلمه بعض الألم ليرعوي ويقصر عن بعض مساويه وينتبه على ما فيه حظه ورشده .

ولو ان ملكاً من الملوك قسم في اهل مملكته قناطير من ذهب وفضة الم يكن ذلك سيعظم عندهم ويذهب له به الصيت والذكر فأين ذلك من مطر واحد يعم البلاد وقيمته ما يزيد في الغلات من قناطير الذهب والفضة في اقاليم الارض كلها افلا ترى المطرة الواحدة ما اكثر قدرها واعظم النعمة على الناس فيها وهم عنها ساهون وربما عاقت احدهم عن الحاجة لاقدر لها فتذمر وتسخط ايثاراً للخسيس قدره على نفعه العظيم .

(فكر في هذا النبات) وما فيه من ضروب المآرب الثمار للغذاء والأتبان

(١) القاموس الخثر محركة العكر

للعلف والحطب للوقود والخشب لكل شيء من اعمال النجارة واللحاء والورق والزهر والأصول والفروع والصموغ لضروب من المنافع . افرأيت لو كنا نجد الثمار التي منها نتغذى مجموعة على وجه الأرض ولم يكن ينبت على هذا السوق والأغصان الحاملة لها كم كان سيدخل علينا من الخلل في معايشنا وهل كانت طيبة اذا اخذناها في الارض فالتدبير في كونها على ماهي عليه بيّن النفع والحكمة . وان كان الغذاء موجوداً فأن المنافع في الحطب والحشيش والاتبان وسائر ما عددنا عظيم موقعها جليل فقدها هذا مع ما في النبات من التلذذ بحسن منظره ونضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر العالم وملاهيه فسبحان الذي احسن كل شيء خلقه .

(ثم فكر في هذا الربيع) الذي جعل في الارض حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مئة حبة واكثر واقل وكان يجوز ان تكون الحبة تأتي بحبة مثلها فلم صارت تربع هذا الربيع كله الا ليكون في الغلة متسع لما يرد في الارض من الحب ومما يقوّت الزارع وغيره الى ادراك زرعه الا ترى ان الملك لو اراد عمارة بلد من البلدان كان السبيل في ذلك ان يعطي اهله ما يبذرونه في ارضهم ومما يقوتهم الى ادراك زروعهم . فانظر كيف تجد هذا المثال قد تقدم في تدبير الحكيم فصار الزرع يربع هذا الربيع لبقي بما يحتاج اليه للقوت والزراعة وكذلك الشجر والنخل يربع الربيع الكثير فأنك ترى الاصل الواحد حوله من الشكل امر عظيم فلم كان ذلك الا ليكون فيه ما يقطعه الناس ويستعملونه في مآربهم وما يرد فيغرس في الارض ولو كان الاصل منه يبقى منفرداً لا يفرخ ولا يربع لما امكن ان يقطع منه شيء لعمل ولا لغرس ثم كان ان اصابته آفة انقطع اصله فلم يكن منه خلف .

(تأمل نبات هذه الحبوب) من العدس والمج والدجر والجرجير وما اشبه

ذلك فأنها تخرج في اوعية شبه الخرائط لتصونها وتحجبها من الآفات الى ان تشتد وتستحكم كما قد تكون المشيمة على الجنين لهذا المعنى بعينه .

فأما البر وما اشبهه فأنه يخرج مدرجاً في قشور صلاب على رؤسها امثال الأسنة من السفا ليمنع الطير منه . فأن قلت او ليس قد ينال الطير منه على حال من البر والحبوب قلنا بلى لعمري وعلى هذا قدّر الامر فيها لان الطير ايضاً خلق من خلق الله تعالى وقد جعل الله له فيما يخرج من الارض حظاً ولكن حصنت الحبوب بهذه الحجب لكيلا يتمكن الطائر منها كل التمكن فيعبث فيها ويفسد الفساد الفاحش فأنه لو كان الحب يصاب والحب بارز ليس عليه شيء يحول دونه لأكب عليه حتى ينشفه اصلاً فكان يعرض من ذلك ان يبشم الطير فيموت ويخرج الزارع من زراعته صفراً فجعلت هذه الوقايات لتصونه فتنال الطير منه شيئاً يسيراً ويتقوت به ويبقى اكثره للانسان لانه اولى به اذا كان هو الذي طرح فيه وسقاه وكان الذي يحتاج اليه اكثر مما يحتاج اليه الطائر .

تأمل الحكمة في خلق الشجر واصناف النبات فأنها لو كانت تحتاج الى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان ولم تكن لها افواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت اصولها مركوزة في الارض لينزع منها الغذاء فتؤديه الى الاغصان وما عليها من الورق والثمر فصارت الارض كالام المربية لها وصارت اصولها التي هي لها كالأفواه الملتقمة للارض لتنزع منها الغذاء كما ترضع اصناف الحيوان من امهاتها . الم تر الى عمد الفسطاط والخيم كيف تمد بالأطناب من كل جانب لتثبت منتصبة فلا تسقط ولا تميل فهكذا تجد النبات كله له عروق منتشرة في الارض وممتدة الى كل جانب لتمسكه وتقيمه ولولا ذلك كيف كان يثبت هذا النخل الطوال والدوح العظام في الريح العاصف .